على بك فوزى

للأستاذ أحمد أمين

لم يتجل لى وفاء المصرى وإخلاصه كما رأيته أول أمس فى جنازة أستاذى وصديق على بك فوزى . فقد استقبل النعش فى محطة مصر عدد كبير من أصدقائه وساروا فى مشهده يعزى بعضهم بعضا إذ أبى الفقيد أن يكون له ولد ولا مال ولا جاه ؛ فكان أول مشهد عظيم رأيته لله وحده وكان أنبل ما رأيت منظر احمد باشا شفيق وقد تقدمت به السن وصعب عليه السير يتحامل على صديق ، ويسير من المحطة إلى جامع الكخيا ، ثم أسلم عليه وأسأله هل تعرف الفقيد فيقول : لا لم أره فى حياته ؛ ولكنى سمعت بنبل أخلاقه فرأيت وفاء للفضيلة أن أسير فى جنازته .

* * *

رحمة الله عليه ، فقد كان أمة وحده ، ولم أر له نظيراً فى كل من عاشرت . ولئن كان أكثر الناس نسخاً متشابهة من كتاب تافه مطبوع ، فقد كان نسخة خطية من كتاب قيم نادر . متمدن على آخر طراز من طراز المدنية فى ملبسه وأناقته وآدابه ولباقته ، متصوف إلى آخر حدود التصوف فى زهادته واحتقاره للمال والجاه والمناصب ، وفوق ذلك كله فى روحانيته السامية .

لم يفخر فى حياته بنسب ؛ على أنه كان جديراً أن يفخر به لو وجد الفخار مدخلا إلى نفسه ، فقد كان جد أبيه المملوك الشارد الذى قفز بفرسه من القلعة ؛ وناهيك بعظمة المماليك أيام سطوتهم .

ولم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير ؛ يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير ؛ ويتكلم الانجليزية كأحد أبنائها ؛ ويحذق الفرنسية والألمانية والتركية . ثم لا ينظر إلى اللغات على أنها مقاصد بل على أنها وسائل للثقافة ، فاتخذ هذه اللغات كلها أداة يتعرف بها الثقافات المختلفة ويقف على أحسن ما ألف فيها ؛ هذا الى صحة فى النقد وقوة فى الملاحظة وشخصية بارزة لا تخضع لأى مؤلف مهما عظم . ومع هذا كله تجلس اليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أمى غبى جاهل بكل شىء ، فهو ذهب خالص غطى بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتحكه وتصل إلى باطن نفسه ؛ ولا يكون ذلك إلا لتلاميذه وخلصائه ، وحتى مع هؤلاء يقدم اليك نتيجة معارفه الواسعة وتفكيره العميق وهو مختف وراء ذلك يحاول ألا يشعرك بنفسه ، وإنما يشعرك بالفكرة نفسها ، فكأن كلمة « أنا » لم تكن فى معجمه .

* * *

عرفته أول أمره أستاذاً لى بمدرسة القضاء يدرس لنا التاريخ الاسلامى ؛ وتطاير إلينا قبل قدومه أخبار منشورة عن تاريخ حياته . إنه تخرج فى مدرسة المعلمين ، ثم سافر فى بعثة الى انجلترا ، ثم عاد منها بعد أن نال إجازة من جامعتها ، وهى أوصاف لم نتحمس لها كثيراً ، فكنا قد شاهدنا بعض من سافروا إلى أوربا ورجعوا بشهاداتهم الضخمة وألقابهم العديدة وكانوا كالبندقة الفارغة : منظر ولا مخبر ، ورواء فى العين ، ولا شىء فى اليدين ؛ فقلنا لعله أحد أولئك الذين لم يكسبوا من أوربا إلا اعوجاجاً فى اللسان ورطانة فى الألفاظ وإنكاراً لعظمة أى شىء مصرى ، وعصبية لكل تافه أجنبى .

رحبسنا أنفاسنا عند قدومه نستطلع طلعته

دخل علينا رجل قصير القامة . يحاول أن يخفى قصره بطول طربوشه وارتفاع حذائه ، أسمر اللون فى وسامة ، واسع العينين فى خجل ، كبير الرأس فى عظمة .

يتأبط كتباً كثيرة العدد لا يتناسب حجمها مع حجمه بين عربية وإنجليزية ، ويأبى أن يحملها الفراش عنه كما اعتدنا أن نرى من غيره .

وأكبر ما راعنا منه أنه بدأ درسه بعبارة عربية فصيحة التزمها فى كل درسه ، وفى كل دروسه بعد ، وفى كل أحاديثه معنا فى الدرس ، لا أعرفه شذ عنها مرة واحدة ، فى طلاقة وعذوبة واستشهاد بالأدب العربى والشعر العربى ، مما لم أعرفه لأزهرى ولا لمدرس من دار العلوم . يجيد فهم عبارة الطبرى على صعوبتها ، وابن خلدون على عمقها . والكتب الانجليزية العميقة ، ويوضح ذلك كله بصياغة شهية لذيذة ، ويطبعها كلها بالطابع العربى فلا تسمع لفظة انجليزية ، ولا تستعصى عليه عبارة يريد أن يترجمها من لغة أجنبية

ومما زادنا إعظاماً له أنه لم يكتف بالدرس بل اتصل أيضاً بنفوسنا ، فكان يخرج من الدرس أحياناً إلى شرح حالة نفسية أو ظاهرة اجتماعية يصل بها إلى أعماق نفوسنا ، وأخذنا بالنظام الشديد ، وكان يقدسه كل التقديس ، فيشمئز من الكلمة النابية ومن اللفظة تكتب منحرفة قليلا عن موضعها ، ومن النكتة إن كان فيها قليل من الشذوذ .

ولا تسل عنه فى ورق الامتحان ، فقد كان يصحح أوراقنا فى دقة غريبة ، ويأتى بالأوراق مدونة فيها ملاحظاته فى اللفظ والمعنى والأسلوب والخطأ الإملائى والخطأ التاريخى ، وينتقدنا انتقاداً لاذعاً لكن ظريفاً .

من أجل هذا كان الأستاذ المحبوب والأستاذ الجليل والأستاذ الظريف والأستاذ العالم .

لم تطل دراسته فى مدرسة القضاء ، وانتقل إلى وظيفة إدارية . ولم يطلب الانتقال لرغبة فى مال فهو يحتقر المال ، ولا فى جاه فهو يحتقر الجاه ، ولا رغبة عن التعليم فهو يحب التعليم ويصارحنى أن أكبر غلطة ارتكبها أنه تحول من التعليم إلى الأدارة ، ولكنه كان شديداً ، وكان عاطف بك ناظر المدرسة شديداً ، وكان لكل شخصيته القوية ، ولكل آراؤه فى سياسة الطلبة ، فتصادما تصادماً نفسياً من غير أن ينبس أحدهما بكلمة ؛ وكان أن خرج « على فوزى » من المدرسة آسفين عليه كل الأسف شاعرين أنه لا يمكن أن يعوض ، وكان « عاطف » أول من حزن على خروجه بعد أن حاول كل محاولة فى استبقائه

كان حساساً إلى درجة لا تتصور . تجرحه الكلمة الخفيفة لا يشعر بها أحد ، والاشارة القليلة تصدر من رئيسه فيظنها بالغة منتهى الشدة ، والابتسامة المعتادة فتحز فى نفسه وتصل إلى أعماق قلبه .

فكيف يستطيع بعدُ أن يكون موظفاً ؟ لقد تداول عليه وزراء عديدون لا أسميهم ، كل منهم جرح نفسه جرحاً بل جروحاً . وأى الرؤساء يتحاشى حتى الهنات الهينات مع مرءوسيه ؟ وأى الرؤساء يدرك مقدار السهام المسمومة التى يوجهها إلى نفس كنفس على « فوزى » وهو لا يرى أنها سهام أصلا بل قد يظنها نوعا من الملاطفة ؟ - لقد رآه وزير يكتب خطاباً بالانجليزية فأعجبته بلاغته فقال له : لعلك تحسن أن تكتب مثل هذا بالعربية ! فما كان أشدها وقعاً فى نفسه .

ثم هو يعشق العدل المطلق الدقيق ، ويؤلمه أشد الألم الظلم الخفيف . وكان كل يوم يرى تصرفات فى الوزارات لا تتفق والعدالة التى ينشدها : هذا يحابى المتملقين ، وهذا ينصر الأجانب على المصريين ، وهذا يمنح ترقيات وعلاوات لغير المستحقين

ثم ما هذا النظام السخيف للدرجات ؟ فهذا موظف فى الدرجة الأولى وآخر فى الدرجة الثانية ! إنه يفهم أن يبدأ الموظف بمرتب صغير يزيد على القدم والكفاية ، ولكنه لا يفهم تقسيم الموظفين إلى طبقات يعلو بعضها بعضا ، ويدل بها بعضهم على بعض

لا . لا . ثارت نفسه على كل ذلك ، فى هدوء وسكون ، ومن غير أن يشعر أحد من أصدقائه دبر أمره وأعد عدته للخروج من الوظائف الحكومية ، وألح فى طلب إحالته إلى المعاش ، فكان له ذلك . ورضى بنحو خمسة وعشرين جنيها فى الشهر على ثمانين وما كان يتبعها من علاوات وترقيات وحسبان معاشات

***

بل ليست الوظيفة وحدها هي التى يجب الفرار منها ، بل يجب الفرار أيضاً من مصر ، فما مصر هذه التى يحكمها الأجنبى وتستسلم له ؟ وما مصر التى يستمتع فيها صعاليك الأجانب بما لم يستمتع به سادة أهلها ؟ وما مصر التى تجلس فى مقهى من مقاهيها فتشعر أن الرومى الذى يقدم لك القهوة خير منك وأعز منك ، ويستطيع أن يحتقرك وأن ينكل بك ولا تستطيع أن تفعل به مايفعل بك ؟ وما مصر التى لم تستطع أن تكون غنية فى أطبائها وعلمائها وتجارها وصناعها ولم تزل عالة فى كل ذلك على غيرها ؟ لابد إذن من الهرب من الوظيفة ومن مصر معا

خرج من مصر ساخطاً غاضباً آسفاً حزيناً ، خرج هائما على وجهه يمثل دور جده . لقد كان جده المملوك الشارد ، فكان هو الحر الشارد

خرج إلى أوربا هائما فى ممالكها ، ولكنه كان فيها مستوحشاً ،

نعم إنه يتكلم لغاتها ويفهم مدنياتها ولكن ليس قومها قومه، ولا دينها دينه، ولا روحانيتها روحانيته. ثم ألقى عصاه فى الأستانة عقب الحرب واطمأن إليها، فهى هى البلدة المستقلة بين ممالك البلاد الاسلامية؛ وهى هى التى لا تذلها الامتيازات الأجنبية؛ وهى التى يجد فيها غذاء روحه وعواطفه بمساجدها العظيمة ومآذنها التى تشق السحاب. من أجل هـذا اختار السكن فيها، وفى الأحياء الوطنية لا الأجنبية، واتخذ مجلسه فى مقهى تركى بلدى تحت شجرة زيزفون بجوار حائط مسجد بايزيد

ثم حاول اصدقاؤه جهدهم أن يحولوه عن رأيه ويعدلوا به عن غربته، فذهبت محاولتهم عبثا. عرضوا عليه وظائف مختلفة الالوان كان آخرها مدير دار الكتب، فكان جوابه: متى عرفتم سبب خروجى من الوظيفة وسبب خروجى من مصر لم تعرضوا هذا العرض؛ فالاصل قبل الفرع، والحرية مع الفقر خير من الذل مع الغنى

***

قد رزق عيناً يرى بها غير مايرى جمهور الناس؛ فكثيراً ماكان يحتقر من يجله الناس، ويجل من يحتقره الناس، لأن له مقاييس فى التقدير تختلف عن مقاييس الناس. ليس فى مقاييسه اعتبار لثروة ولا جاه، ولا منظر، ولا حسب، لا نسب.

حتى مكانه العام الذى كان يختاره لمقابلة أصدقائه لايختاره لوجاهته، وإنما يختاره لنظافته، ولان صاحبه مسلم، ولانه يتنفس فيه جواً شرقيا لاغربيا، ولأنه ليس فيه امتيازات أجنبية، وهكذا من اعتبارات متعددة لم أستطع أن أعرف منه إلا بعضها

ويفضل أن يزور حلاقا كان زميلا له فى المدرسة على أن يزور باشا من الباشوات أو من يعده الناس كبيراً من الكبراء

***

قد أعظمه فى عيوننا صغر الدنيا فى عينه؛ فليس للمال عنده إلا وظيفتان: قليله يتبلغ به ويسد حاجاته الضرورية، وكثيرة للمروءة. وأعرف له فى ذلك فصولا غاية فى السمو، فلقد كان حيناً يسكن فى أسرة أورية عميدها فرنسى، وربة الدار ألمانية ولها ابن وبنت. حتى إذا نشبت الحرب العظمى جند عميد الأسرة، فأحلت الاسرة فقيدنا محله على رأس المائدة.

وكان كثيراً مايدور الجدال على المائدة فى نظريات الحرب وخصوصا الفتى والفتاة، فكان الفتى يذهب مذهب أبيه ويتعصب لفرنسا وحلفائها، والبنت تذهب مذهب أمها وتتعصب لألمانيا وحلفائها؛ ثم كان من الفتى أن طعن تركيا فى سمعتها وقيمتها، ولم يكن يعرف عصبية الفقيد لتركيا، فلم يعد على فوزى يطيق البقاء بعد فى البيت، ولكن ماذا يصنع ووفاؤه يقضى بمراعاة هذه الأسرة بعد غياب عميدها، وعصبيته التركية تأبى أن يسكن فى البيت بعد ما كان من الفتى؟ لايحل هذا الاشكال إلا احتقار المال، فقد تظاهر بأنه يأخذ درسا على السيدة الألمانية ودفع ماكان يدفعه أيام سكناه لم ينقص منه شيئاً وإن قلل ذهابه بعد ذلك لأخذ الدرس

وكان منظره فى استانبول غريبا: يجلس فى مقهى عرفه البؤساء والمحتاجون فهو يمنحهم ما أمكنه وهو الفقير الذى لا دخل له إلا معاشه الخمسة والعشرون جنيها، ينفق منها ثلثها على نفسه وثلثيها على مروءته، وطويل أن نعد مآثره فى هذا الباب

أحب العزلة وأكثر التفكير، فهو فى بيته وحده، إذ لازوجة له ولا ولد، وفى تروضه وحده غالبا؛ هو وحده فى أكثر أوقاته، صديقه الكتاب، ثم ضعفت أعصابه ففقد صداقة الكتاب أيضاً إلا نادراً، وكان تفكيره فى العالم حيناً وفى نفسه كثيراً

وهذه حالة تستتبع الوحشة وتستتبع التشاؤم، وتستتبع الحزن والانقباض، وكذلك كان شانه

غلب عليه الخجل فى غلو، والخجل — كما يقول بعض علماء النفس — سببه كبرة تفكير الإنسان فى نفسه، فهو إذا مشى ظن أن الناس كلهم ينظرون إليه وينقدون مشيته؛ وإذا تكلم ظن أن الناس كلهم ينصتون إليه وينقدون كلامه؛ وإذا تحرك أو سكن أو تنفس فالناس يعدون حركاته وسكناته وأنفاسه؛ فكان هـذا الخلق فيه أكثر شقائه. وبلغت به الحالة أن كان فى آخر أيامه إذا جلس فى مقهى اختار مكانه وراء عمود، وإذا سكن فى «بنسيون» صحا قبل أن يصحو